مؤلّـِف الكلام في معاني الكلم لا في ألفاظِها . وهو بما يَصْنعُ في سبيلِ مَنْ يأخذُ الأصباغَ المختلفة فيتوخّـَى فيها ترتيباً يحدثُ عنه ضربٌ من النقشِ والوشْيِ . وإذا كانَ الأمْرُ كذلك فإِنّـَا إنْ تعدّـَينا بالحكايةِ الألفاظَ إلى النظمِ والترتيبِ أدّـَى ذلك إلى المُحالِ وهو أنْ يكونَ المنشدُ شعرَ امرىءِ القيس قد عَمِل في المعاني وترتيبها واستخراج النتائجِ والفوائدِ مثلَ عملِ امرىء القيس وأن يكونَ حالُه إذا أنشدَ قوله - الطويل - .

(فَقُلْتُ لَهُ لَمّا تَمطّـَى بِصُلْبِهِ ... وأَرْدَفَ أَعْجازاً ونَاءَ بكَلْكَلِ) .

حالَ الصّائغِ يَنْظُر إلى صورةٍ قد عَمِلَها صائغٌ مِنْ ذَهبٍ له أو فضّةٍ فيجيءُ بمثلها في ذهبهِ وفضتِه . وذلك يخرجُ بمرتكبٍ إنِ ارتكبَه إلى أن يكونَ الرّاوي مستحقاً لأن يوصَفَ بأنه استعارَ وشبّـَه وأن يُجْعَلَ كالشّاعرِ في كل ما يكونُ به ناظماً فيقالَ إنه جَعلَ هذا فاعلاً وذاك مفعولاً وهذا مبتدأ وذاك خبراً . وجعلَ هذا حالاً وذاكَ صفةً . وأن يقالَ نَفى كذا واثبتَ كذا وأبْدَلَ كذا من كذا وأضافَ كذا إلى كذا وعلى هذا السّـَبيلِ كما يقالُ ذاك في الشّاعرِ . وإِذا قيلَ ذاك لَزِم منه أنْ يُقالَ فيه : صَدَق وكَذَب كما يقالَ في المَحكِيّ عنه وكفَى بهذا بُعداً وإحالةً . ويَجمع هذا كلّـَه أنه يلزمَ منه أن يُقال إنه قال شعراً كما يقال فيمنْ حَكَى صَنعةَ الصّائغِ في خاتَمٍ قد عَمِلَه : إنه قد صاغَ خاتماً .

وجُملةُ الحديثِ أنّـَا نعلَمُ ضرورةَ أنّه لا يتأتّـَى لنا أن نَنظِمَ كلاماً من غير رَوِيّـَةٍ وفكْرٍ فإِنْ كانَ راوي الشّعرِ ومُنشدُه يحكي نظمَ الشّاعرِ على حقيقته فينبغي أنْ لا يتأتّـَى له روايةُ شعرِه إلاّ برويّـَة وإلاّ بأن ينظرَ في جميعِ ما نَظَر فيه الشاعرُ من أَمْرِ النظمِ وهذا ما لا يبقى معه موضعُ عذرٍ للشّـَاكّـِ .

هذا وسببُ دخولِ الشّـُبهَةِ على من دَخَلَتْ عليه نه لمّـَا رأى المعاني لا تتجلّـَى للسامعِ إِلاّـَ مِنَ الألفاظ وكان لا يوقَفُ على الأمورِ التي بِتَوخّـيها يكون النظمُ إلا بأن ينظرَ إلى الألفاظِ مرتّـَبةً على الأَنحاء التي يوجبها ترتيبُ المعاني في النفسِ . وجرتِ العادةُ بأن تكونَ المعاملةُ مع الألفاظ فيقالَ : قد نظم ألفاظاً فأحسنَ نظمَها وألّـَف كلماً فأجادَ تأليفها